# أحمد شوقي.. والشعب

بقلم محمد خير الحلواني

يجب ان نفرق قبل كل شيء بين الشاعرية العظيمة وبين اتجاهها في الحياة ، لئلا نقع في الخطأ الذي وقع فيه كثير من ادباء المدرسة الواقعية منذ زمن قريب ، يوم كانوا يرفعون الشاعر او يضعون منه لموقفه من مجتمعه وشعبه ، ولتعبيره عن بيئته او ترفعه عنها .

بهذا ننصف الاديب ، ونضعه في المكان الذي يليق به ، وبهذا نبتعد عن التعسف في التقدير ، والجور في القاء الاحكام ، ولعل هؤلاء الذين ينظرون الى الاديب من زاوية خاصة لا يختلفون عن القدماء الذين هجنوا شعر عمر بن ابي ربيعة وابي نواس والحسين بن الضحاك لتهتكهم وفجورهم ، ناسين ان وراء هذا عبقرية لا تجمد ، وقريحة لا تنكر .

وشوقي شاعر العبقرية الفذة ، دون اي ريب ، وقد تناوله الادباء منذ حين بالبحث والدراسة ، فمنهم من انصفه وقدره ، ومنهم من ظلمه وجحد فضله ، ولعل ابرز الابحاث في حياته وشاعريته يدور حول موقفه من امته القريبة منه في مصر ، والبعيدة عنه في سائر امصار العرب وسواء اكان موقف شوقي مشرفا ام لم يكن ، فان شاعريته الخصيبة لن تضار في ذاتها ، ولن تجحد في سموها وقوتها .

والحق اننا اذا تجردنا من حبنا للشاعر الكبير ، ووضعنا بين ايدينا شوقياته الرائعة ، والتمسنا فيها الجانب الذي يخدم الشعب او يوجهه ، رأينا قصائد كثيرة تتناول موضوعات من هذا القبيل ، ولكنها مع هذا لا يمكن ان تصل الى ذلك النوع من الادب الذي نادى به الاشتراكيون وسموه « واقعيا » او النوع الذي نادى به « جان بول سارتر » وسماه « ادب الالتزام » ، واقامه على اساس فلسفته الوجودية التي عرف بها .

واذا اردنا الابتعاد عن الاصطدامات الادبية التي انسربت الينا عن طريق الغرب ، استطعنا ان ننفي العمق عن قصائد شوقي ، تلك التي يدور موضوعها في فلك سياسي او اجتماعي ، ومعنى هذا ان الشاعر العظيم لم يكن يصدر فيها عن احساس عميق ، ولا عن شعور نافذ الى صميم الواقع ، وانما كان يجاري مناسبات طارئة ، وظروفا عارضة ، فيرسل شعره من وحيها والهامها دون ان يشعر بها الشعور الذي يطلب من شاعر الالتزام .

وكل ما نطالعه في «الشوقيات » من قصائد في المرأة والفقر والعمال واعياد الوطنية ، لا يستطيع ان يدلنا على عقيدة الشاعر السياسية او الاجتماعية ، لان الظروف والمناسبات هي التي وجهته اليها ، وفرضتها عليه .

ثم ان طبيعة الشاعر ونفسيته لها قيمتها في هذا المجال، فهناك مقومات يجب توفرها في شخصه ونفسه ليستطيع ان يسخر ادبه لخدمة شعبه وامته ، وما احسب ان شوقي قد توفرت له هذه الاسباب ، وهو ربيب القصور السامقة، والنعمة الوارفة ، تشق سيارته شوارع القاهرة في وقت كان الحصول فيه على السيارة وقفا على الطبقة العالية من الناس ، ومع ذلك كان يمكن ان ينحدر شوقي الى مستوى شعبه ، وينضم الى صفوفه رغم هذا كله ، لو انه رزق العنف والصخب لا الملاينة والهدوء ، ولكن الشاعر جمع الخصيصتين في نفسه ، فهو لين من ناحية ، ومترف من ناحية اخرى .

وقد تجلى لينه هذا في كثير من دعواته ، اذ احب ان تنحو نحوا هادئا رفيقا ، بعيدا عن الثورة ، نائيا عن العنف، فاذا اهاب بالعمال ، وحثهم على الجد ، قال :

اطلبوا الحق برفق واجعلوا الواجب دابا

وهو الذي ارسل هذه الحكمة :

اطلب الحق برفق تحمد طالب الحق بعنف معتد

ولقد لمس منه ناقدوه هذه الطبيعة ، وعرفوا انه « لم يواجه الناس بتجديد عنيف في الادب قط ، ولم ينهض لخصومة ناقد من نقاده ، بل لم يجرؤ على ان يلقى نقاده بالعتب ، وانما كان يعاملهم معاملة الاراقم ، لا يلقاهم ولكنه

يأخذهم من خلف باطراف اليد (١) »

وهذه المداورة الى جانب لينه وترفه ، تذكرنا بموقفه يوم نفاه الانكليز الى « برشلونه » ، وبصمته الطويل عنهم، كأن الذي حرمه من وطنه ، وابعده عن امه العجوز ، لا يستحق هجاء او ليس في عمله ما يدعو الى الانفعال والثورة .

ومن هنا يتضح ان كل ما كتب عن اثر المنفى في توجيهه نحو الشعب والعروبة انما يحمل في ثناياه كثيرا من التجوز ، وقليلا من الحقيقة ، ولا استطيع ان المس لمنفاه اثرا في نفسه الا انه اطلق اساره ، واتاح له الحرية في تناول « المناسبات » بالنظم الرائع ، والشاعرية الخصيبة ، دون ان يلبسه شعورا فيه حدة وفيه نفوذ .

واذا اردنا ان ننصف شوقي في هذا الموضوع ، استطعنا ان ننعته بانه المرآة للعصر الذي عاش فيه ، والبيئة التي ترعرع فيها .. مرآة تعكس القلق الشائع في النفوس ، والحيرة المتفشية في الناس ، والمتذبذب بين اتجاهات كثيرة تتسم بها عصور الانتقال والنهضة ، واظن ان الفرق واضح بين ان يكون الادب خادما للشعب وفي سبيله ، وبين ان يكون مرآة له ، وصورة عنه .

ويكفي ان نعرف ان شوقي يجمع خصال عصره في ديوانه الضخم ، فقد هاجم الحجاب ثم دعا اليه ، وهجا الانكليز ثم مدحهم ، وسكت عن حادثة «دنشواي» المعروفة ثم نظم فيها بعد سنة في ذكراها ، وتردد شعره بين مديح الاتراك ومديح الخديوي ، وارتبط في القصر فنسي كل شيء الا سياسته ، ثم تركه ولكن صورته ما زالت تتراءى له ، وتتلامح امام عينه .

واذا نظرت في تاريخ العصر الذي عاش فيه شوقي رايت هذه السمات تتخذ اعشاشها في النفوس ، وتصبغ القلوب بصبغتها ، فقد كان الناس بين ان يميلوا الى الدعوات الجديدة وبين ان يحافظوا على قديمهم .. بين ان ينادوا برفع لواء الاتراك والخلافة الاسلامية ، وبين ان يستجيبوا لاغراء الانكليز والحضارة الاوروبية ، بين ان يشجعوا سفور المرأة وبين ان يبقوا على حجابها ، فالعصر اذن عصر قلق ، وعصر مذاهب ومشارب شتى ، فلم يكن غريبا ان يلد شوقي الرجعي التقدمي ، والتركي العربي ، والمتعصب المتسامح .

ملاحظة اخرى نلمحها في قصائد شوقي حول الحوادث الوطنية والقومية ، هي انه يقف بعيدا عنها ، ويصفها دون ان ينغمس في حمأتها او يشارك ابطالها والقوام عليها ، وكانه اراد ان يمثل حسان بن ثابت (٢) الذي اكتفى ان يناصر الاسلام بلسانه حين عجز عن مناصرته بحسامه ، وليس هذا ببعيد ، فشوقي كثير الذكر لحسان ، وكثير الاستشهاد في معرض الفخر بشاعريته ، ويبدو هذا الجانب عند الشاعر في قوله :

**يوم البطولة لو شهدت نهاره  لنظمت للاجيال ما لم ينظم**

فكانه يحاول ان يكشف عن نفسه ، فلو حضر يوم البطولة لما خاض غماره بالدم والحديد ، ولكن بالشعر والبلاغة .

وقد يدخل في شعر شوقي الوطني والقومي تلك المراثي التي تشغل الجزء الثالث من الديوان ، وقد قيلت في رجالات عصره من وزراء وقواد وزعماء وادباء ، وبرزت فيها عناصر من القومية والوطنية ، ولكنها اعجز ان تحملنا على ان نعتبرها نوعا من الشعر الذي يخدم الشعب ،ويوجه الامة ، لانها تبدو في كثير من دوافعها اشعار مناسبات ليس غير ، فقد يرثي الشاعر اليوم من هجاه بالامس ، على غرار ما فعل مع الشريف حسين ، اذ هجاه في « حائيته»

(١) حافظ وشوقي . لطه حسين . ص ١٩٣ الطبعة الثانية .

(٢) مع الفارق بين الشعرين فقد كان حسان يصدر عن عقيدة عميقة، ويصور نفسه احيانا احد الابطال .

الشهيرة :

عادت اغاني العرس رجع نواح ... ونعيت بين معالم الافراح

فيقول فيه :

لا تبذلوا برد النبي لعاجز ... عزل يدافع دونه بالراح
بالامس اوهى المسلمين جراحة ... واليوم مد لهم يد الجراح

ولكن الحسين يموت ، وموته « مناسبة » تدفع شوقي الى قول الشعر فيه ، فيرثيه بقصيدة مطولة يفتتحها بهذا البيت :

لك في الارض والسماء مآتم ... قام فيها ابو الملائك هاشم

ثم لا يلبث ان يصوره هذا التصوير الرائع :

انت كالحق الف الناس يقظا ... ن وزاد ائتلافهم وهو نائم
حبذا موقف غلبت عليه ... لم يقفه للعرب قبلك خادم
ذائدا عن ممالك وشعوب ... نقلت في الاكف نقل الدراهم

حتى القصائد التي وصف بها الثورات العربية ، لاتلمح فيها العاطفة المتأججة ، او العميقة النفاذة ، فاذا اخذنا قصيدته في دمشق ، لمحنا فيها ضربا من التعميم يصدق على كل حادثة مشابهة ، فليس ثمة جزئيات تقفك امام وحشية فرنسا ، وتضعك امام المآثم التي تجريها هناك ، والمجازر الرهيبة التي تحدثها في الربوع ، وهل ادل على هذا من قول الشاعر :

سلام من صبا بردى ارق ... ودمع لا يكفكف يا دمشق
ومعذرة اليراعة والقوافي ... جلال الرزء عن وصف يدق
لحاها الله انباء توالت ... على سمع الولي بما يشق
تكاد لروعة الاحداث فيها ... تخال من الخرافة وهي صدق

افتجد في هذه الافتتاحية غير التعميم والشمول ؟ افتطالعك جزئية واحدة تصور لك مأساة القوم ، وتدلك على ان الشاعر استطاع ان يشعر بالحوادث شعورا قويا ؟

والواقع ان قصيدة الشاعر تنحو هذا المنحى في كليتها، وتشير الى سطحية العاطفة وهزالها ، فاذا وضعت بجانبها قصائد الشعراء السوريين لاح لك الفرق بين من عانى التجربة وبين من افتعلها افتعالا ، وخذ مثالا على ذلك قطعة من قصيدة خير الدين الزركلي حيث يقول :

الاهل اهلي والديار ديساري ... وشعار وادي النيربين شعاري
ان الدم المهراق في جنباتها ... لدمي ، وان شفارها لشفاري
امجالس السمار ضاحكة بهم ... ضحك الهوى ، ما حل بالسمار
ام القصور نواعما رباتها ... وما للقصور دوائر الاثار
ام الحياة ، وللحياة نعيمها ، ... هل في ديارك بعد من ديار

وماذا بعد ذلك ؟

ان شوقي يحب مصر ، ويمحضها حبه ، ولكنه حب من يتعلق بالبيئة التي زكا فيها عوده ، لاحب الجندي الذي يضحي في سبيل وطنه ويشقى ليقدم له السعادة ، ونحن نلمس عنده هذا الحب في همزيته المطولة التي القاها في مؤتمر المستشرقين الذي انعقد في جنيف (١) ونلمسه كذلك في شعره الذي قاله في منفاه ، يصور حرمانه وحنينه الى مصر ، حتى ليجعلها اما ثانية له ، فقد خاطب امه المتوفاة قبيل عودته :

فما برحت من خاطري مصر ساعة ... ولا انت في ذي الدار زايلت لي وهما
اذا جنني الليل اهتزت اليكما ... فجنحا الى سعدى وجنحا الى سلمى

وقد يكون اجمل صوره الشعرية لهذا الحنين ما ورد في القصيدة التي عارض بها ابن زيدون ، وذلك في قوله :

لكن مصر وان اغضت على مقة ... عين من الخلد بالكافور تسقينا
على جوانبها وفت تمائمنا ... وحول حافاتها قامت رواقينا
ملاعب مرحت فيها مآربنا ... واربع انست فيها امانينا

ولكن ليس في هذا الشعر الا ذاتية صرفة،تجعل الشاعر يتمنى العودة الى وطنه الحبيب ، الى حيث اقام من بيته « كرمة ابن هانىء » يجتمع اليه فيها المحبون والمعجبون ، وهو بهذا بعيد عن ان ياتي بشعر الالتزام الذي نادى به « سارتر » في اعقاب الاشتراكيين .

واخيرا نعود الى ما كنا راينا في مطلع هذا البحث ، من ان شعر شوقي كان مرآة تعكس مجتمعه القلق ،وتصوره تمام التصوير ، بحوادثه الدامية ، واعراسه المفرحة ، ولكنه ليس بالشعر الذي ينفذ صاحبه الى صميم المشكلات بشعوره العميق وفكره الواعي ، ثم يصدر عنها،وينهل منها.

حلب — **محمد خير الحلواني**
مجاز في الادب من جامعة دمشق

(١) عام ١٨٩٤ .


## كتابان خطيران

**عارنا في الجزئر :** لجان بول سارتر

**الجلادون** لهنري اليغ

ترجمة عايدة وسهيل ادريس

**دار الاداب**